الرحيل

أفلت من الزحام يلهث ·· رنا الى تذكرة السفر فى يده غير مصدق ·· تنفس فى راحة ·· وأضاءت وجهه ابتسامة بينمـــا هتف فى نشوة وشوق :

ـ سألقاها بعد يوم ·· أو بعض يوم ··

ما لبث أن سبح فى بحـــر خياله المائج ·· هاجت كوامنه والتهبت أشواقه ·· فاضت الدموع على خديه ·· ولم يدر بالعجوز الذى تتأمله ·· بودها لو تجوس فى أعماقه وتقف على سبب بكائه ·· خطا كالنائم ·· ارتطمت قدمه بقدم العجوز ·· كاد أن ينكفىء ·· استند على مقعدها ·· جاء وجهه قبالة وجهها ·· أوشك أن يلثمها لولا أن اصطدمت عيناه بليفة بيضاء فوق رأسها ·· ليتها هى ! ·· انها تبعد آلاف الأميال ·· سيلقاها بعد يوم أو بعض يوم ·· سيكون اللقاء حارا ملتهبا ·· سيعانقها ·· ويدمعان ·· لن تطفىء الدموع اللهيب ··

أفاق على أصابع العجوز تداعب خده ·· الحنان يشع من عينها ·· عانقته أمه قبل الرحيل ·· اكتفت هى بنظرة ·· يالها من نظرة ! ! ·· تأمل راحته ·· لم ير التذكرة ·· قدمتها اليه العجوز قبل أن يجن ·· اختطفها وطار ليعد لرحلة العودة ·· الفرحة تغشى وجهه وتنعكس على محياه ·

فى منزلها ·· الصمت يملى ارادته ·· والسكون ثقيل ثقيل ·· والحركة مشلولة ·· باب الشقة مفتوح على مصراعيه على غير عادة ·· لعله استعداد للقاء عائد ·· أو لوداع حبيب ·· رائحة ثقيلة غريبة تتفشى فى المكان وتجثم على الأنفاس والصدور ·· والاطفال هاهم مجتمعون صامتون ·· ساكنون ·· ! ·· لا يعقلون ما يجرى ·· ولكنهم يدركون بمشاعرهم ·· الحزن فى عيونهم خير معبر ·· بالأمس كانوا يملأون الدنيا سعادة ·· تتطاير بسماتهم وضحكاتهم فيشع الحبور ·· هذه الحجرة هى مصدر الأحزان ·· وهذا الفراش حوله اناس واجمون مطرقون ·· يعيشون لحظات انتظار قلقة ··· سحقا للانتظار ·· ومن ينتظرون ؟ ·· العائد الحبيب ·· أم زائر ثقيل الظل والوطأة ؟؟ ·· شاخصين جميعا الى جسد مكوم هو منبع الأحزان ·· من بين الأغطية يطل وجه ·· أو شبح برزت عظامه ·· وعينان واسعتان ·· قلقتان ·· شتان بين قلقها وقلقهم ·· تستقران على صورة معلقة ·· لا ريب أنها صورة الحبيب البعيد ·· على شفتيه ابتسامة عذبة متفائلة·· تندت العينان بالدموع ·· ظلت مستقرة لفترة ·· لعلها تقرأ الذكريات ·· ما أحلاها ·· وما أعطرها !! ·· والصور تتراءى·· والمشاهد تتوالى فى سرعة ·· والأنفاس تتردد ·· بطيئة متثاقلة ··

يا لجنون الخيال ·· ويا لرقته وتحننه ! ·· كأنه يطرق الباب ·· بالتأكيد هو ·· كأنها تراه ·· تعرف وقع أصابعه ··

فالطرقات رقيقة ·· كأنها دقات السعادة ·· بل هذه المرة أكثر رقة ·· كل الدنيا ترقص وتغنى ·· ها هى تراه يدخل ·· ابتسامته يتوجها الحياء ·· نفس ابتسامته يوم طلبه يدها ·· لو طلب روحها لوهبتها له ·· كان الحفل متواضعا ·· ومع ذلك أفعمته الفرحة القلبية ·· توالت لقطات السعادة ·· نشرها فى كل ركن فى هذا البيت ·· حلقا كطائرين ·· جريا وتقافزا وتشابكت أيديهما ·· كانت الدنيا جنة ·· وهو هو ذا يقول ·· انها تذكر المكان والزمان ·· والنسمة التى كانت تداعب شعره ·· وملامحه ·· وصوته الحاتم :

ـ أنى يضم العصفورين عش ·· فيحلو الهمس وتعذب النجوى ·· ويسرى الدفء ·· أنى يسمعان شقشقة العصفور الصغير رباط الحب ؟

يوم بعد يوم ·· مرت كتوانى ·· توالت الشهور كأنها يوم أو بعض يوم ! ·· بدت مسئولية الرباط وغز يشك الجسدين ·· يؤلم روحيهما ·· لو يعيشا بين أجزاء الطبيعة على الحب ·· أما يكفى الحب لتأثيث العش ·· ألا يدفىء الحب العصفور الصغير ·· يقولون ضرب من الخيال والأوهام ·· يقولون ويقولون ولا مفر من الانصات ·· ولا مفر من الامتثال ·· لو يعرفون الحب ·· تململ قلبيهما ·· لا مندوحة من الرحيل ·· لا مناص من الفراق ·· ولابد من الانتظار ·

حانت ساعة الرحيل ·· فى ذلك اليوم بدت علتها ·· طغت عليها أسبابها ·· أمست داء لا يشفيه دواء ولا يحد من وطأته ·· تحيرت العقول ·· ومع الحيرة دب اليأس فالدواء عضال ·· يستفحل ولا شفاء ·· هكذا أيضا قالوا ·· ان كان للداء قلب فلا ريب أنه من الصخر ·· بلا رحمة ·· بدل الربيع خريفا ·· والشباب هرما ·· ذبلت أوراق الوردة الحمراء ·· مال عنقها ··

قلبها ما زال يدب بالحياة ·· ينبض باسم البعيد ·· من عينيها أطلت عبـرة تترحم عـلى ما فات ·· من أعمـاقها خرجت أنة ·· سيعود العصفور ولا يجد وليفته ·· ولن يجدها ·· عبثا سيكون بحثه ·· سيرجع نداءه الصدى ·· فى هذه الحجرة ·· ومن هذا الفراش تضرعت بألا يطير الخبر ·· فى رسائلها كانت الكلمات تنطق بالفرحة ·· ومن ثناياها يقطر الدماء ·

فى مكان الرحيل كان العمل على أشده ·· من أجل تأثيث العش ·· الأوراق الحمراء تتراكم ·· والقلب يزداد رهبة على رهبة ·· يعتصره خوف ما لبث أن تحول الى ذعر من المجهول ·· مضى عام ·· كان فى الحلقين مرارة ·· وقد أشرف القلبـــان على الجفاف ·· كل الآمال تكسرت الا أمل اللقاء ·

مرت الساعات بتثاقل السلحفاة ·· العين مسهدة ·· والقلب قد وهنت ضرباته ·· الطائرة تمخر عباب الفضاء بطيئة ·· كأنها عربة يجرها حمار عجوز بخل عليه صاحبه بالطعام ···

انتقل بصرها الى نتيجة الحائط ·· انه ·· انه يوم اللقاء ·· اليوم يوم اللقاء ·· ! ·· كيف ؟ ؟ ··

أسرع نبضها قليلا ·· لمعت عيناها الباهتتان :

ـ ليتنى ألقاه ·· ليت يمتد عمرى فيكحل عينيه بنظرة تشد أزره ·· لحين اللقاء بلا فراق ·· لا تتعجل يا عمرى ·· ولتنـأى يا فنائى ساعات ·· أستحلفك ·· ولأموت وصورته آخر ما أرى فى عالم الأوهام ··

ركب العربة ·· تحت ابطه جهد عام ·· دقات قلبه تزلزله ·· الدقات رهيبة ·· لو تخترق عيناه الجدران التى يحجبها عنه ·· نظرتها قبل الرحيل ما زالت فى عينيه ·· يرى نظرة الأمل من خلال دموعها ·· وقد أتى حاملا الأمل ··

علاها شحوب الموتى .. لعل قد نفذ صبر الموت ولم يمهلها حتى النقاء .. ولعله لم ينصت لاسترحاماتها .. المحيطون بها .. يتمنون ألا تطول سكرات الموت .. كل ينادى فى لوعة على الموت المتكاسل .. الموت أرحم من العذاب .. عذابها .. وعذابهم ..

ـ لتمهلنى قليلا أيها الموت .. رفقا أيها الموت ..

التفتت الى الحائط .. الذعر يملؤها .. لعل الموت قد شق الجدار .. يشع من عينيه الرعب والسخرية .. فحيحه يصك أذنيها .. ليس فى مقدرتها أن تغلق عينيها فلا ترى بشاعته .. دنا من البيت يشتم الرائحة الثقيلة الغريبة .. ارتجل من العربة أمام البيت الصامت .. المفروض أن يسرع .. لكنه وقف يفكر .. عجبا كيف يقف .. وكيف يستطيع أن يفكر .. مشى بطيئا .. لا شك أن فكرته سخيفة حمقاء .. وكيف .. كيف تطيعه قدماه .. صرع احساسه فكرته المجنونة الخرقاء .. تقافز مسرعا .. دقات قلبه أسرع من قدميه .. الموت يدنو منها .. مخالبه على حافة الفراش .. ابتسامته الساخرة تتسع .. اشتدت بشاعته .. صم فحيحه أذنيها .. لا تستطيع أن تغلق عينيها .. أو تسد أذنيها ..

ـ أقبل مخالبك .. أتوسل اليك أيها الموت ..

باحساسها تسمع وقع قدميه .. فى هذه المرة تدب .. لقد أنهكه انتظار عام طويل .. وقف على باب الحجرة .. لم تره .. أيضا شعرت به .. تسمع صوت أنفاسه المتلاحقة ..

ـ لقد خصموا من عمر الحب قرنا من الزمان .. افسح لحبيبى أيها الموت ..

اندفع اليها ·· أفسح الموت رغما وعنوة ·· التقت عيناهما ·· انها تراه ·· نعم ·· اللقـاء حقيقى ·· استطاعت أن ترفع يديها لتعانقه ·· ضمها لأول مرة ·· ضغطت على ظهره دون حياء ·· تحيرت الأفهـام ·· كيف للموتى أن يتحركوا ؟! ·· اندفع الدم فى وجه الميت ·· توارى الموت قبل أن يحرقه بهاء الحب ·· الحياة ·· سبح القارب نحو العش ·· سرى الدفء ·· وزالت الأسقام ·